

المسألة العقدية ودورها في النهوض الحضاري عند مالك بن نبي

The nodal issue and its role in the civilizational revival of Malik bin Nabi

ط.د عطار إكرام¹ ، أ.د بلخير عثمان²

¹ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، ikram.attar@univ-tlemcen.dz

² جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، manahijid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/13 تاريخ القبول: 2021/09/29 تاريخ النشر: 2021/12/20

ملخص:

يعد مالك بن نبي من أبرز المفكرين الجزائريين الذين حملوا مشروعا فكريا متكاملا، أراد به رسم طريق وخطة طويلة الأمد لبناء الحضارة الإسلامية، ومن أهم ركائز هذا المشروع الحضاري عند بن نبي نجد المسائل العقدية التي هي الدعامة الأولى التي قامت عليها الحضارة الإسلامية لعدة قرون أبهرت العالم بمنجزاتها وانتشارها، فسلط مالك بن نبي الضوء في إنتاجه الفكري على هذه المسائل وسبل تطبيقها والاستفادة منها من أجل العودة بالمسلم إلى مصاف التقدم وتسيد الأمم بعد أن أصبح في آخرها بسبب التخلي عن هذه المسائل، وسنعرض في هذه المقال أهم هذه المسائل العقدية وضرورة تفعيلها في الواقع.

كلمات مفتاحية: المسألة العقدية؛ مالك بن نبي؛ الحضارة الإسلامية؛ الفكرة الدينية؛ الإنسان.

Abstract:

Malak Bin Nabi is one of the most prominent Algerian thinkers who carried an integrated intellectual project, by which he wanted to chart a long road and plan for building an Islamic civilization For centuries it has amazed the world with its achievements and proliferation. Malik bin Nabi shed light in his production on these issues and the ways to apply them and benefit from them in order to return the Muslim to the ranks of progress and supremacy of the nations after they became at the end due to the abandonment of these issues, and we will present in this article the most important doctrinal issues and the need to activate them in reality.

Keywords: : nodal issues; malik ben nabi; Islamic civilization; religious idea; Human .

1. مقدمة:

شهدت الأمم والمجتمعات و أجمع العلماء والمفكرون أن الإسلام قد صنع حضارة كبيرة وعريقة امتدت لقرون كثيرة تسيد خلالها المسلمون العالم، ومن أشهر المفكرين الذين بحثوا في الحضارة الإسلامية عوامل نهوضها وسقوطها مالك بن نبي حتى لقب بفيلسوف الحضارة وترك لنا من خلال مؤلفاته مشروعا حضاريا متكاملا طويل الأمد، بحث فيه الحضارة الإسلامية بصفة خاصة والحضارات بصفة عامة، وقد جعل مالك بن نبي المسائل العقدية والإيمان هما الأساس الأول في نهوض وبناء الحضارة و تطورها فكانت هذه المسائل هي الأسباب الأولى والمباشرة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية منذ انطلاقتها، وفقدان هذه المسائل فعاليتها الاجتماعية هو الذي أدى إلى سقوطها، لذا وجب دراسة هذه المسائل أهميتها وسبل تطبيقها والاستفادة منها لتحقيق نهضة حضارية إسلامية وهذا ما نجده في الإنتاج الفكري عند مالك بن نبي وكان محل الدراسة في هذه المقالة ومنه فالإشكالية الأولى التي نطرحها: ما هي أهم المسائل العقدية المساهمة في النهوض الحضاري الإسلامي؟ ونفرض من خلال هذه الإشكالية أن للمسائل العقدية دور مهم في تحقيق النهضة الحضارية، وكان الهدف الأول في هذه الدراسة هو الوقوف على هذه المسائل تحليلا ووصفا لمعرفة مواطن قوتها وتأثيرها في النهضة، ولذلك اعتمدنا على المنهج التحليلي الوصفي مع استعمال الاستقراء للإحاطة بالكل جوانب الدراسة، وأهم النتائج المتوصل إليها هو ضرورة إعادة بعث هذه المسائل العقدية و إحيائها في الأمة الإسلامية.

2. المراحل التي مرت بها الحضارة الإسلامية

1.2 المرحلة الأولى:

وهي نقطة الانطلاق وتكون فيها الحياة فيها متسمة بالبساطة الفطرية، فهي حياة راكدة حتى ثم تأتي الفكرة الدينية وتنشأ إرادة المجتمع التي تطلق فعالية العوامل المعنوية عند النقطة الصفر، (بن نبي، 1971، ص34). فتملاً فراغه وتنزله السبيل فتندفع عجلة

التاريخ وتشرع في دورتها الحضارية وهذه هي المرحلة الأولى من التحضر، وسماه مالك بن نبي بمرحلة الروح، لأن الروح هنا تكون مهيمنة على الغرائز ومنتحمة في العقول في بداية التحضر، ويكون المجتمع والفرد متماسكا كلما زادت الطاقة الدينية، حيث رأى مالك بن نبي أن هاته المرحلة ضرورية لأي إنسان كان في أي زمان أو مكان، ويضرب لنا مالك بن نبي بعض الأمثلة عن هذه المرحلة من خلال مسار الدعوة الإسلامية حيث أن القانون الروحي أو العقيدة الإسلامية هي التي كانت تحكم بلالا رضي الله عنه حينما كان سوط التعذيب يرفع سباته ولا ينقطع عن تكرار قوله أحد؟ أحد؟

كما أن صيغة الروح هذه كانت تتحدث بصوت تلك المرأة الزانية التي أقبلت على الرسول صلى الله عليه وسلم لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حد الزنى عليها، فكل هذه الوقائع ناتجة عن معايير الطبيعة، وتدل على أن الغريزة قد كتبت وظلت محتفظة بنزوعها إلى التحرر وفي هذا قول مالك بن نبي حيثما فقدت الروح فقدت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يلبث أن يسقط بتأثير من جاذبية الأرض، (بن نبي، 2015، ص66) وبالتالي هذه كانت المرحلة الأولى في الحضارة الإسلامية التي استمرت بالتصاعد والتطور حتى المرحلة الثانية.

2.2 المرحلة الثانية:

يسمي مالك بن نبي هذه المرحلة بمرحلة العقل، حيث يسيطر العقل و عالم الأفكار في هذه المرحلة على المسار الحضاري ويتمكن من تحقيق التوازن بين عالم الأفكار والأشياء، (بن نبي، 1971، ص26-34) وتتسم المرحلة بالتوسع و انتشار الفنون والعلوم ويحل العقل محل أو الروح، حيث أنه بعد سيطرت الروح على الغريزة واصل المجتمع تطوره ونموه الحضاري واكتملت شبكة روابطه الداخلية التي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور وهذه المرحلة تمثل في رأي مالك ابن نبي تنازلا لعالم الروح إلى عالم العقل ومن هنا تنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله.

وأثناء مواصلة التاريخ سيره يستمر هذا التطور في نفسية الفرد وفي البنية الأخلاقية للمجتمع وحيث يدخل ذلك نقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية التي تستمر في نقصانها منذ دخلت الحضارة منعطف العقل. (الخطيب، 1993، ص69) وهنا يرى مالك بن نبي أن تعاد مكانة الروح على العقل والغرائز لأن هذا التغيير سيكون سبب في الانحطاط وفقدان الذات في المرحلة الثالثة .

3.2 المرحلة الثالثة:

نتيجة للمرحلتين السابقتين وهي نقطة الانتكاس والارتداد وتتجمد فيها الفكرة الدينية وتسيطر الأشياء على العقول والأشخاص وقد تكون هذه الأشياء تافهة لكنها براقة. (بن نبي، 1971، ص29) وفي هذه المرحلة تسيطر الغرائز على المسار الحضاري وتحل محل العقل والروح فينتج عنها انحطاط الإنسان إلى الحضيض باعتبار أنه سمح للغرائز أن تتحكم به فيقترب من مرتبة الحيوان، ومنه تدخل الحضارة الإنسانية في مرحلة جديدة من التخلف والتفوق وهو الحاصل في مجتمعات العربية والإسلامية اليوم التي أصبحت تنظر إلى الماضي دون محاولة إنتاج في الحاضر وتنتظر التغيير من الخارج دون خلقه وتهتم بشراء الأشياء لا بكيفية صنعها.

إن مرحلة الغريزة هي الطور الحضاري الذي ينبأ عن مجتمع سماه مالك بن نبي بمجتمع ما بعد الحضارة. (بن نبي، 1971، ص29).

3. الركائز العقدية في الحضارة الإسلامية

1.3 الفكرة الدينية

أ/ مفهوم الدين عند مالك بن نبي: يرى ابن نبي أن الدين هو قانون من قوانين الله عز وجل التي فطرت عليها النفس الإنسانية حسب تعبيره: "فضلا عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا. (بن نبي، 2015، ص78).

ويقول ابن نبي أيضا في تعريف الدين: "يبدو ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحد الوثنيات البدائية. (بن نبي، 1974، ص200).

فالدين بهذا المعنى يكون متواجد عند كل الجماعات البشرية مهما كانت اعتقاداتها فهو قانون من قوانين الله تعالى، حيث لا يقوم مجتمع ما دون وجود فكرة دينية تجمعها، وهو ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية ونجده وراء كل المنجزات البشرية.

ب/ دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة:

يؤكد مالك بن نبي أن كل المجتمعات وعلى اختلاف عقائدها وشرائعها التي تدين بها فإن الفكرة التي غرست بذرتها الأولى في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية والتي اعتبرها الظرف الاستثنائي الذي يلد مجتمعا وهي ما ييسر لهذا المجتمع أن يؤدي عمله التاريخي، فمالك بن نبي يعتبر أن العلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية التي تربط بدورها بين الأفراد داخل المجتمع الواحد، وباستقراء التاريخ نجد أن الفكرة الدينية هي المسؤولة عبر العصور على بناء المجتمعات حيث يقول بن نبي: "ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية." (بن نبي، 2018، ص75). فالفكرة الدينية حاضرة دائما عبر التاريخ وهي البذرة التي تنشأ منها الحضارة باعتبارها الفكرة الجوهرية التي تدخل إلى مجتمع ما في مرحلة قبل التحضر لتعطيه الدافع والطاقة للانطلاق في بناء حضارته،: "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية." (بن نبي، 1974، ص68).

ج/ حضور الفكرة الدينية في عالم الأفكار:

مثل بن نبي لعالم الأفكار من الأدب العربي بقصة حي بن يقظان حيث يقول: أخذت مغامراته اتجاهها مخالفا فهي لم تبدأ في الواقع إلا بعد نفوق الغزال، أم الطفل

الأعزل بالتبني وأخيرا هرمت الغزالة وضعفت، فاقتادها إلى حيث المرعى المغذي قطف لها لا منه وأطعمها من كل أنواع الثمار، ولكن ضعفها وهزلها كانا في تزايد ثم حضرها الموت، فتوقفت كل حركاتها و تعطلت وظائفها وعندما رآها الصبي في هذه الحالة، غمره شعور قوي بالأسى والألم حتى أوشكت روحه أن تنفصل من جسده، فأخذ يفحص أذنيها وعينيها فلم يلحظ عليها أي تلف ظاهر، وفحص أيضا جميع أعضائها فلم يجد عيبا، لقد كان يحرص على اكتشاف مكان الداء لكي يخلصها منه حتى تعود إلى حالتها التي كانت عليها من قبل ولكن لم يوفق إلى شيء من ذلك وكان عاجزا عن أن يقدم لها العون. وابتداء من هذا الموقف يستطيع ابن يقظان أن يكتشف رويدا رويدا فكرة الروح تتابع حلقات القصة في صورة تأمل ودراسة تتيح له أن يتوصل إلى فكرة الخلاق وإلى إدراك النظام الرباني ورؤية باطنية لله والاهتداء إلى فكرة صفات الله، (بن نبى، 1971، ص29). نتوصل من خلال هذه القصة إلى الاتجاه الذي اختاره ابن يقظان في عزلته فهو لم تحركه غريزة البقاء وإنما حركته غريزة البحث عن الحقيقة وهنا ونرى تباين كبير في الاهتمامات بين القصة الأولى في عالم الأشياء والقصة الثانية التي تدور في عالم الأفكار حيث أن الإنسان بالفطرة يمتلك كلا الجانبية ويستطيع النجاح فيهما معا، وهذا ما نجده في الدين الإسلامي الذي جمع في الإنسان الروح والمادة وكلاهما وقوده في الحياة.

نتوصل من خلال هذه القصة إلى الاتجاه الذي اختاره ابن يقظان في عزلته فهو لم تحركه غريزة البقاء وإنما حركته غريزة البحث عن الحقيقة حيث أن الإنسان بالفطرة يؤمن الفكرة الدينية التوحيدية، وهذا ما نجده في الدين الإسلامي الذي جمع في الإنسان الروح والمادة وكلاهما وقوده في الحياة، بهذه التركيبة الموجودة في الإسلام استطاع المسلمون بناء حضارتهم والتقدم وتسيّد الأمم لزمن طويل بفضلها.

د/الفكرة الدينية في المجتمع الإسلامي:

يرى مالك بن نبى أن المجتمع الإسلامي ككل المجتمعات مر في تحضره بثلاثة مراحل

أساسية وهي:

أ/ مجتمع ما قبل التحضر:

ويقابله في التاريخ الإسلامي المجتمع الجاهلي قبل الإسلام وفي الأصل كان مجتمعا قريبا صغيرا يعيش في شبه الجزيرة العربية، وفي عالم ثقافي محدود، حيث كانت المعتقدات نفسها تتمحور حول أشياء لا حياة فيها، إنها أوثان الجاهلية، وهو مجتمع في عمر الشيء وعالم الأشياء في هذا المستوى يكون شديد الفقر وتكون فيه الأشياء بدائية: كالسيف والرمح، أو الودود...وعالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي قد انحصر في حجم القبيلة، فيما عالم أفكاره قد تمثل بوضوح في تلك القصائد المتألقة الشهيرة بالمعلقات، وهو عالم محدود يستقي منه الشاعر الجاهلي أبياته البراقة في المدح والذم أو الغزل... (بن نبي، 1971، ص39).

فيمكننا القول أن العرب كانوا يعيشون حالة استعارة ميكانيكية إذا صح التعبير مفردات من هنا وأخرى من هناك فيما هو شبيه إلى حد ما بوضعنا زمن الصدمة الحضارية الغربية في القرنين الأخيرين، ففي العراق مثلا استعاروا الكثير من المفردات من بلاد فارس، وفي الشام من البيزنطيين والتأثيرات الهلينية، أما في شمال جزيرة العرب فلم يكن لهم فيما عدا الشعر وبعض التقاليد الإدارية والأنشطة الاقتصادية، معطيات حضارية أصيلة. (خليل، 2015، ص14).

فكان المجتمع الجاهلي يعيش في أبسط الحالات الاجتماعية بعيدا عن أي عامل أو مظهر من مظاهر التحضر إلى أن جاء الإسلام والدعوة إلى التوحيد الذي مثل الدافع الحيوي ونقطة الانطلاق لبناء الحضارة.

ب/ مجتمع الحضارة:

يقابل هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي مجيء الإسلام حيث فجأة أضاءت فكرة في غار حراء بدأت بكلمة اقرأ، مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية، وقضت على عزلة المجتمع الجاهلي، ورأى النور مجتمع جديد متفاعل مع العالم ومع التاريخ، فشرع بهدم ما بداخله من حدود قبلية ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص، حيث كل أضحى حامل

رسالته، وليبني عالماً ثقافياً جديداً تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار، (بن نبي، 2004، ص40). هكذا تميز الإسلام بكونه ديناً فجر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألف في نفس الإنسان بالمنهاج التربوي الشامل ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين، لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان أي الحضارة الإسلامية ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس الإنسان، (بن عاشور، 2003، ص09). وفي مبدأ الأمر، وعندما بدأت عملية اندماج المجتمع الإسلامي في التاريخ، تأسس عالم الأشخاص فيه على نموذج أصلي، يتمثل في طائفة الأنصار والمهاجرين المتآخين في المدينة، (بن نبي، 1971، ص40). حيث اطمأن الإنسان وتحرر من القيود ما دفعه إلى البناء والتقدم، يقول ول ديورانت: "إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها، (ديورانت، 1988، ص3). ولقد جسد هذا النموذج الفكرة الإسلامية إذ أضحى المحتذى والمستلهم، وكان القرآن الحافز والدافع للتقدم وتطور الحضارة، فبعد أن كان العرب قوم يضرّبون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون، جاءهم النبي العربي، فأصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد قلة، وعزّوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم. (شلي، 2012، ص58).

ج/ مجتمع ما بعد التحضر:

ونحن في هذه المرحلة منذ سقوط دولة الموحدين، وهي نقطة الارتداد والانكفاء هنا تجمد الفكرة وتتجه المسيرة نحو الوراء، إذ ينقلب المجتمع الإسلامي على أعقابهِ ليعود إثر مراحل عوالمه الثلاث.

هنا لا يعود عالم أشخاصه على هيئة النموذج الأصلي الأول، بل يصبح عالم المتصوفين، ثم عالم المخادعين والدجالين من كل نوع، ولا سيما من نوع النعيم، وعالم

أشياءه لا يعود بسيطاً مستجيباً لضروراته كما كان حاله في الجاهلية، فالأشياء هنا تستعيد سلطتها على العقول والوعي، إذ غالباً ما تكون تافهة براقية، وبهذه السيرة المنغلقة يجد المجتمع الإسلامي نفسه منذ عدة قرون في عصر ما بعد الحضارة، (بن نبي، 1971، ص40) وحدث هذا عندما ابتعدت الحضارة الإسلامية عن ثقافتها وعن الصبغة الأولى التي تشكلت حولها.

ه/ علاقة الفكرة الدينية بالقيم الخلقية:

الروح الخلقي منحة من السماء إلى الأرض، يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات، ومهمته في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، (بن نبي، 2019، ص79) كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ." (الأنفال، الآية: 63). والإسلام هو عنوان لحسن الأخلاق و أحسنها قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ." (النحل، الآية: 90). وقد شملت الأخلاق جميع المناحي بداية من الفرد إلى التركيب الاجتماعي فهي كالروح بالنسبة للجسد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن مثال على ذلك فقد عرف بحسن الخلق والصدق والأمانة قبل البعثة وتعزز ذلك بعدها قال الله تعالى فيه: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ."، (آل عمران، الآية: 59) أي أن الأخلاق الحسنة التي تحلى بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده أساس الدعوة وقوامها فلو لم تكن لما قامت الحضارة الإسلامية وما انتشرت في أصقاع الأرض فهي عصب الحضارة، وهي بلا شك ترتقي بالأمة إلى مقامات العزة بين الأمم لأنها مرتكزة على التوحيد ولا تقتصر حينئذ على الإنسان بل تتجاوزه إلى الكائنات الأخرى.

ويعيش المسلم المعاصر في حالة من الفوضى الأخلاقية تعتري حياته اليومية وسلوكه فبعد المراحل الكثيرة التي مر بها ها هو اليوم يقبع في مرحلة ما بعد التحضر وقد فقد هويته و مقوماته فنجدته يتخبط بين بهويته الإسلامية وأخلاق دينه وواقع بنظم جديدة وفلسفات وضعية مادية تحكم العالم لذا وجد نفسه يعيش حالة من الانفصام فاضطربت أخلاقه وتشوهت حتى فقد بوصلته نحو الحقيقة فتخلّى عن الفكرة القرآنية في حياته اليومية وجعلها محصورة في العبادة فقط و دور المساجد وفي هذا يقول مالك بن نبي: "إنها اللحظة المؤلمة حيث المسلم منشط إلى شخصين: المسلم الذي يتمم واجباته الدينية ويصلي في المسجد، ثم المسلم العملي الذي يخرج من المسجد ليغرق في عالم آخر." (بن نبي، 1971، ص75). هذا العالم الآخر الذي يندمج فيه المسلم و يفقد زمام المبادرة فيتأثر به بدل أن يؤثر فيه وينتهي به الأمر إلى العيش بين قطبين متجاذبين مما يؤدي به إلى حالة من الانفصام والاضطراب، لأنه يفصل بين الجانب الأخلاقي و جوانب الحياة الأخرى فيطبع الحياة السياسية الاستبداد، ويعم الفساد على المستوى الاجتماعي، كل هذا بسبب غياب القيم الموجهة والمرشدة الضابطة لمناحي الحياة.

يسأل المسيري في مقدّمة كتاب العالم والغرب لصاحبه كافين رايبلي، وهو مترجم الكتاب، سؤالاً يقع في قلب الإشكالية التي طرحناها، يقول فيه: كيف يتأتّى لنا أن نعيش سوياً دون أن يكون هناك قيَم عامّة نستند إليها حين نحكم على أنفسنا وعلى الآخرين، قيم يمكن الاحتكام إليها إن اختلفنا، وإن رأينا البشر يتصرّفون مرّة أخرى مثل القرد، قيمٌ تمكّننا أن نسيّ الإنسان إنساناً، والقرد قرداً، (رايبلي، 1958، ص18). يقودنا هذا الحديث إلى وجوب وجود قيم ثابتة مطلقة لا تتغير وتتبدل حسب الأفراد و أمزجتهم لأنها إن كانت ذلك تكون نسبية متغيرة يضعها كل فرد حسب حاجاته و رغباته فيحدث التصادم ويعم قانون القوة، ويكون هذا سبب مباشرة في انحلال وتمزقه، فأول عمل يقوم به المجتمع فور ميلاده هو ربط شبكة العلاقات الاجتماعية، أي هو خُلق التآخي في حال المجتمع الإسلامي، ثم إنّ أوّل ما يفقده المجتمع وهو متوجه نحو حتفه هو تداعي

البناء الخلقي، ويمكن أن نستنتج أنَّ التوتر الخلقي قد بلغ ذروته في العهد المدني، ثم شرع في التدرّج بعد صفين. (بن نبي، 2015، ص28). فالأخلاق إذن هي بداية تشكل المجتمع واتجاهه نحو الحضارة وغيابها سبب في انحلال المجتمع وفتوره، وهذا ما نعاني منه منذ سقوط دولة الموحدين ودخولنا في مرحلة ما بعد الحضارة التي انتشر فيها الانحلال الأخلاقي وعم الفساد في مجتمع من المفترض أنه يتخلق بأخلاق الإسلام لكن غابت الأخلاق وبقي اسمها فقط ومن أغرب الكلام الذي سمعته ويجسد حقيقة عمق الأزمة التي نعاني منها قول أحدهم: "اعمل ما شئت لكسب النقود سواء في السرقة أو بيع المخدرات أو غيرها لا يهم المهم أن لا يمسك به هذه هي الديمقراطية والحرية هكذا هم في الغرب" هذا الكلام جاء على لسان رجل مسلم يعيش في مجتمع مسلم، نلمس من خلاله خطورة الوضع الذي نعيش فيه وأثر غياب القيم الأخلاقية التي تضبط الأفراد بدعوى أن الحرية الأخلاقية من مظاهر التقدم، حيث أنه لم يعد هناك حرج من القيام بأفعال محرمة شرعا أو غير الأخلاقية إن كانت تجلب منفعة، وخلف هذا الكلام مشكلة كبيرة أخرى وهي التقليد والتبعية، تقليد الغرب في أفكاره وأشياءه.

هذا كله ناتج عن غياب الدور الفعال الذي تلعبه الفكرة الدينية في المجتمع فالمجتمع الإسلامي لا ينهض أو لا يمكنه ذلك أصلا إن لم يعد للفكرة الدينية حيويتها ويستغلها كونها الدافع الحيوي للتقدم وبناء الحضارة.

2.3 الإنسان

أ/ الإنسان عند مالك بن نبي:

إن الشخص عند مالك بن نبي في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج الحضارة. (بن نبي، 2015، ص29). نلاحظ من هذا التعريف أن مالك بن نبي يعتبر الإنسان صاحب دور ومكانة في الأرض هو القادر على التغيير فيها، حيث أن الإنسان صاحب رسالة.

وتقول فوزية بربون أن الإنسان عند مالك بن نبي له معادلتين الأولى تحمل صفات ثابتة لا تتغير في الإنسان و الثانية متغيرة حيث تقول: الأولى ثابتة لا تتأثر بالتاريخ وهي كونه كائنا بشريا حباه الله بالتكريم، والثانية متغيرة و متأثرة بالظروف المحيطة وهي كونه كائنا اجتماعيا تمثل الأولى التكوين العضوي البيولوجي وتمثل الثانية الخصائص النفسية والذهنية التي تصوغها الظروف التاريخية والاجتماعية." (بربون، 2010، ص 209).

فالإنسان حسب مالك بن نبي إذن له قيمة ثابتة حيث كرمه الله تعالى و جعله في أحسن تقويم والقيمة الثانية للإنسان هي الاجتماعية وهي متغيرة يكتسبها عن طريق علاقاته الاجتماعية وتظهر من خلال سلوكه وأخلاقه وتعامله داخل محيطه وتختلف من إنسان لآخر لأنها من صنعه يحدد بها معالم شخصيته وتتدخل في تشكيلها العوامل الدينية والتاريخية والثقافية وغيرها.

ب / الإنسان بين عالم الأشياء والأفكار والأشخاص

أن المتمعن في الذات الإنسانية يدرك أنها في عزلتها تنقسم إلى قسمين فإما تنشغل بالمادة وتنظر إلى الأرض وإما تنشغل بالفكرة وتنظر إلى السماء:

1/ الإنسان في عالم الأشياء:

مثل مالك بن نبي لعالم الأشياء برواية من الأدب الأوروبي "روبنسون كروزويه" وصاحب هذه القصة دانييل دي فواي يطلق بطله من نقطة الصفر بالنسبة للأشياء حيث يقول بعد أن غرقت سفينته وتركته وحيدا على جزيرة نائية: "بدأت أنظم وقت عملي ووقت راحتي ونزهتي وطبقا لهذه القاعدة التي وازبنت على مراعاتها كنت أخرج في كل صباح إن لم تمطر ومعى بندقيتي لمدة ساعة أو ساعتين، ثم أعمل بعد ذلك حتى حوالي الساعة الحادية عشرة، ثم أكل مما أجده في حوزتي، ثم أنام من الساعة الثانية عشرة حتى الساعية الثانية بعد الظهر بسبب الحر الشديد، وفي المساء أستأنف العمل، ولقد أنفقت وقتي في ذلك اليوم وفي اليوم التالي لأصنع لنفسى منضدة، فلم أكن سوى عامل بائس، ولكن سرعان ما خلق مني الوقت والحاجة عاملا ماهرا."

هذه شريحة من وقت روبنسون كروزويه في عزلته على الجزيرة فترى أنه أنفق وقته في أعمال حسية أكل ونوم وعمل، (بن نبي، 1971، ص12). نلاحظ من خلال هذه القصة كيف اتجهت شخصية البطل في عزلته إلى عالم المادة وغريزة البقاء وهذا الاتجاه جعل حياته في هذه العزلة تتجه إلى عالم الأشياء بصفة كلية ولم يفكر بأشياء أخرى، وتعكس هذه القصة توجه التفكير عند الإنسان الغربي المتعلق بعالم الأشياء والمادة والجانب التقني والإنتاجي.

2/ الإنسان في عالم الأفكار:

مثل بن نبي لعالم الأفكار من الأدب العربي و قصة حي بن يقظان حيث يقول: أخذت مغامراته اتجاهها مخالفا فهي لم تبدأ في الواقع إلا بعد نفوق الغزال، أم الطفل الأعزل بالتبني وأخيرا هرمت الغزالة وضعفت، فاقتادها إلى حيث المرعى المغذي قطف لها لا منه وأطعمها من كل أنواع الثمار، ولكن ضعفها وهزلها كانا في تزايد ثم حضرها الموت، فتوقفت كل حركاتها وتعطلت وظائفها وعندما رآها الصبي في هذه الحالة، غمره شعور قوي بالأسى والألم حتى أوشكت روحه أن تنفصل من جسده، فأخذ يفحص أذنيها وعينيها فلم يلحظ عليها أي تلف ظاهر، وفحص أيضا جميع أعضائها فلم يجد عيبا، لقد كان يحرص على اكتشاف مكان الداء لكي يخلصها منه حتى تعود إلى حالتها التي كانت عليها من قبلن ولكن لم يوفق إلى شيء من ذلك وكان عاجزا عن أن يقدم لها العون. وابتداء من هذا الموقف يستطيع ابن يقظان أن يكتشف رويدا رويدا فكرة الروح تتابع حلقات القصة في صورة تأمل ودراسة تتيح له أن يتوصل إلى فكرة الخلاق وإلى إدراك النظام الرباني ورؤية باطنية لله والاهتداء إلى فكرة صفات الله، (بن نبي 1971، ص14). نتوصل من خلال هذه القصة إلى الاتجاه الذي اختاره ابن يقظان في عزلته فهو لم تحركه غريزة البقاء وإنما حركته غريزة البحث عن الحقيقة وهنا ونرى تباين كبير في الاهتمامات بين القصة الأولى في عالم الأشياء والقصة الثانية التي تدور في عالم الأفكار حيث أن

الإنسان بالفطرة يمتلك كلا الجانبية ويستطيع النجاح فيهما معا، وهذا ما نجده في الدين الإسلامي الذي جمع في الإنسان الروح والمادة وكلاهما وقوده في الحياة.

3/الإنسان في عالم الأشخاص:

عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنقاذهم من الحالة التي هم عليها ترتبط بالبطل القادم الذي ينتظرونه دون أن يقوموا بجهد يذكر.

فالخلاص لا يصبح بتجمع أناس على مبدأ يدافعون عنه، ويتفانون فيه، ويتقنون فن التعاون بل بالرجل الذي يجمعهم ويوحدهم، وقد يطول انتظارهم وهم يمنون أنفسهم بالأمني، وهكذا نسمع الخطباء لا يفتأون يذكرون (أين صلاح الدين) أو (قم يا صلاح الدين)، فهم يريدون (صلاحاً) آخر ينقذهم، ولاشك إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الإسلامي، وهو أحياناً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة (بن نبي، 1971، ص104). وهذا يجعلنا بدل أن نبحث ونتدبر في أسباب فشلنا وتخلفنا ننتظر رجل القدر المخلص ونجعله هو سبب ما نحن فيه لأنه لم يأت ولنلقي عليه كل ضعفنا وفشلنا في حين أنه وجب علينا التدبر في الأحداث والأخذ بالأسباب والمسببات كما حثنا القرآن الكريم على ذلك.

فعندما وقع انفصال سورية عن مصر عام 1961 قالوا: إن السبب هو (حيدر الكزبري) ولكن من الواضح أن الانقلاب كان لابد واقعا في وجود الكزبري أو في غيابه، فجميع عوامل التشجيع على هذا الانفصال كانت متوفرة، سواء من الأخطاء التي وقعت أو من عدم توفر فكرة مضادة للانفصال. (بن نبي، 1971، ص104).

وقد تتجسد الأفكار بأشخاص ليسوا أهلا لحملها فتحسب كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمع الإسلامي أو على الإسلام، وقد تتجسد بأشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهت هذه الأفكار بموتهم، أو فتر حماس الأتباع، لقد مارس العالم الإسلامي، دور البطولة

في كفاحه ضد الاستعمار عندما بزغ في سمائه أبطال مثل عبد الكريم الخطابي، وعمر المختار، وعزالدين القسام..

ولكن مشكلة المسلمين الأساسية لم تحل لأن من طبيعة هذا الدور أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التي مهدت للاستعمار وتغلغله داخل البلاد (بن نبي، 2018، ص32). ولا يعني هذا إنكار دور هؤلاء الأبطال، أو التقليل من شأنهم، ولكنها العودة إلى الأصل وهو إنشاء تيار إسلامي قوي يتعلق بالمبدأ ويقوم بالجهد الجماعي، ولذلك جاءت الآية القرآنية حاسمة في هذا الموضوع، إن الواجب على المسلمين قيادة الدعوة وحمل الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويركز مالك بن نبي في أكثر كتبه على هذا المرض، ويطالب المسلمين، والشباب بشكل خاص، بأن يتحول للارتباط بالمنهج لا بشخص معين، لأن هذا الشخص مثل الرأس الذي يقود عربات القطار، فإذا انحرف انحرف القطار كله، وهذا الذي يثيره الأستاذ مالك صحيح بشكل عام ولكنه بالغ في تهميش دور الأشخاص مع أنهم هم الذين يحملون الفكرة ويجسدونها عملياً حتى يقتنع الناس بها، وكلامه فيه شيء من التجريد والمثالية، وهذا الإسلام، وهو حق صريح، إذا لم يحمله أشخاص يتمثلونه ويثرونه بين الناس فلا ينتشر إلا قليلاً.

ج- الأفكار المميّنة والقاتلة:

إن فكر الإنسان مرتبط بتقدم الأمة أو تأخرها ولتقدم الأمة لا بد على الإنسان أن يعمل على تنقية فكره من كل أنواع التخلف والقابلية للاستعمار والأفكار المميّنة والقاتلة فالأولى ورثها المجتمع عن ما بعد الموحدين وهذه الأفكار أرشد من الأفكار القاتلة لأنها منسجمة مع عاداته، لأنها لم تولد في باريس ولندن وإنما ولدت في الجزائر وتونس والقاهرة وفاس أما الأفكار القاتلة نستعيرها من الغرب والتي أطلق عليها مالك بن نبي القابلية للاستعمار التي تعتبر معرقلاً لحركة النهضة لذلك وجب على الإنسان تنقية الفكر من هذه الرواسب لكي يستطيع تدعيم عالم الأشياء بعالم الأفكار (بن نبي، 2018، ص81).

4. خاتمة:

بعد هذا العرض حول فكر مالك بن نبي فيما يخص المسائل العقيدية وأهميتها في نهضة الحضارة الإسلامية نخلص أنه ما ميز فكر مالك بن نبي هو دراسته للحضارة الإسلامية دراسة تفصيلية نقدية عقد مقارنة بين تاريخ المسلمين المشرق و حاضرم واستطاع بهذا الوقوف وتحليل عوامل النهوض الحضاري الإسلامي وسبل الاستفادة منها و تفعيلها وهذه أهم النتائج المتوصل إليها:

- مرت الحضارة الإسلامية بثلاث مراحل أساسية متمثلة في الروح والعقل والغريزة.
- الفكرة الدينية عند مالك بن نبي هي مركب الحضارة لا يمكن الاستغناء عنها.
- الفكرة القرآنية هي التي جعلت من المجتمع الجاهلي بعد الإسلام مجتمع صاحب حضارة وعندما فقدت فعاليتها انتهت الحضارة الإسلامية.
- الإنسان كائن ديني واجتماعي بالدرجة الأولى.
- ميز الله تعالى الإنسان بالجمع بين العقل والروح ما يمكنه من بناء الحضارة وتحقيق النمو.

- لا بد على الإنسان أن يجمع في فكره بين عالم الأفكار والأشياء والأشخاص.
- لابد من إعادة الفعالية الاجتماعية والقيم الخلقية.

5. قائمة المراجع

- 1- بن عاشور، محمد، (2003)، *روح الحضارة الإسلامية*، ط1، مصر، نهضة مصر.
- 2- بريون، فوزية، (2010)، *مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة*، ط1، دمشق، دار الفكر.
- 3- بن نبي، مالك، (2018م)، *شروط النهضة*، ط17، دمشق، دار الفكر.
- 4- بن نبي، مالك، (1974م)، *الظاهرة القرآنية*، ط2، دمشق، دار الفكر.
- 5- بن نبي، مالك، (2006م) *مجالس دمشق*، ط4، دمشق، دار الفكر .
- 6- بن نبي، مالك، (1971م)، *مشكلة الأفكار*، ط1، دمشق، دار الفكر.
- 7- بن نبي، مالك، (2015م)، *ميلاد المجتمع*، ط10، الجزائر، دار الفكر.
- 8- الخطيب، سليمان، (1993م) *فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي*، ط2، بيروت، لبنان، دار النشر.

- 9- خليل، عماد الدين، (2005م)، *مدخل إلى الحضارة الإسلامية*، ط3، المغرب، المركز الثقافي العربي، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- 10- ديورانت، ويل، (1988)، *قصة الحضارة*، ط2، بيروت، لبنان، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.
- 11- رايبلي، كافين، (1985)، *الغرب والعالم*، ط1، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 12- شلبي، أبو زيد، (2012)، *تاريخ الحضارة الإسلامية*، ط3، مصر، مكتة وهبة.
- 13- عبد الرحمن، طه، (2000م)، *سؤال الأخلاق*، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي .
- 14- عبد الرحمن، طه، (2012م) *سؤال العمل*، ط1، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي.